ظهور المهدى بن تومرت

لم تنعم دولة المرابطين بالهدوء والاستقرار منذ ظهور الداعية محمد ابن تومرت على مسرح الأحداث، وقد نشأ ابن تومرت نشأة دينية بقبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة، ولكن ما تلقاه من علوم في وطنه لم يَرْوِ ظمأه، فسافر إلى المراكز الثقافية المشهورة بالعالم الإسلامي، وبدأ رحلاته إلى الأندلس في مطلع القرن السادس الهجري، ثم إلى المشرق مارًا بالإسكندرية، ومنها إلى مكة ثم إلى بغداد حيث التقى هناك بأكابر العلماء أمثال أبى بكر الطرطوشي، واستغرقت رحلته في طلب العلم نحو خمسة عشر عامًا مكنته من التزود بقدر كبير من الثقافة والمعرفة، وتعرُّف أحوال العالم الإسلامي، ومدى انقسام المسلمين وفرقتهم بالمشرق ، وبعد أن عاد إلى المغرب بدأ دعوته بمدن المغرب محاولاً إصلاح الأوضاع الفاسدة وتغييرها. فوجدت دعوته قبولاً وترحيبًا من الجماهير، ورفضًا شديدًا من الحكام؛ إذ رأوها خطرًا يهدد مصالحهم ومراكزهم[1].

والتقى ابن تومرت خلال هذه الرحلة بعبد المؤمن بن على الذى أصبح من أخلص تلاميذه، وصاحبه في كل مكان يذهب إليه، ثم دخل ابن تومرت العاصمة مراكش في منتصف ربيع الأول سنة (515هـ/ 1121م)، وقام بدوره في الوعظ والإرشاد، واعترض على سياسة الدولة في بعض الأمور، فوصل خبره إلى الأمير على بن يوسف الذى استدعاه، وجمع كبار العلماء والفقهاء لمناظرته[2].

وانتهى الأمر بطرده من العاصمة خشية التأثير على العامة وإضعاف مراكز الفقهاء. وكانت الحصافة السياسية تقتضى سجن هذا الداعية أو التحفظ عليه لخطورته على الدولة، وهو ما تحقق عقب مغادرة ابن تومرت مراكش، إذ أعلن عن نياته في مواجهة السلطة الحاكمة، وخلعه الأمير على بن يوسف، وبايعه مَن حوله إمامًا للدعوة الجديدة في سنة (515هـ/ 1121م)، واتخذ من مدينة تينملل مقرا له، ومركزًا لدعوته، وشرع في تحقيق أهدافه السياسية والدينية لإقامة خلافة

[1] ابن القطان ، نظم الجمان ... ، ص ص 38 ، 58 ، أنظر أيضا ، ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص 233 ، المراكشي ، المصدر السابق ، ص 263 .

[2] المراكشي ، المصدر السابق ، ص 269 . .

إسلامية بالمغرب، ولم يدخر في ذلك وُسعًا ولا وسيلة إلا استغلها، وعمد إلى نشر دعوته بين السذج، وألَّف لهم في التوحيد والعقيدة بلغتهم البربرية حتى يسهل عليهم التعلم، ويسهل عليه السيطرة عليهم، ومن ثم باتت له الكلمة العليا في كل شئونهم[3].

وفاة ابن تومرت [52هـ= 1130م :

شارك ابن تومرت في الكفاح المسلح ضد دولة المرابطين، وتذكر المراجع أنه اشترك في تسع غزوات، وكانت معركة البحيرة التي أصيب فيها الموحدون بالهزيمة هي السبب الرئيسي في خيبة أمل ابن تومرت ومرضه؛ حيث قتل فيها عدد كبير من أتباعه، ولكن بقاء تلميذه ومساعده عبد المؤمن بن على على قيد الحياة كان سببًا في تخفيف هذه الصدمة، ومع ذلك لزم ابن تومرت داره، واشتد عليه مرضه، وفارق الحياة في سنة (524هـ/ 1130م)، وخلَّف وراءه حربًا مشتعلة على أرض المغرب الأقصى.

عبد المؤمن بن على

حمل عبد المؤمن أعباء الدعوة عقب وفاة أستاذه، وشُغل بتنظيم شئون الموحدين، مدة عام ونصف العام، ثم شرع في الكفاح ضد المرابطين في منطقة الأطلس جنوبي مراكش في وادى درعة و بلاد السوس و بلاد جاحة القريبة من تينملل، ثم استولى الموحدون على مراكش عاصمة المرابطين في سنة (541هـ/ 1146م)، بعد كفاح دام أكثر من عشر سنوات كان النصر فيها حليفًا للموحدين.

وقد نجح عبد المؤمن في إحكام قبضته وسيطرته على المغرب الأقصى بعد سقوط دولة المرابطين بسقوط عاصمتهم مراكش، ثم وجه اهتمامه إلى الشرق، وبعث بحملاته المتتابعة التي وصلت حتى طرابلس بإفريقية، فساعد هذا النصر على تحقيق الوحدة السياسية للمغرب الإسلامي، وتلقب عبد المؤمن بلقب خليفة، واتخذ من مراكش عاصمة للخلافة، ثم شرع في تجهيز حملة كبيرة

[3] عن رحلة ابن تومرت من بجاية الى مراكش ثم الى السوس أنظر ، امبروسيو هويثي مرندا ، تاريخ الإمبراطورية الموحدية ، ص 47 وما بعدها .

لدفع النصارى عن مدن الأندلس في سنة (556هـ/ 1161م)، إلا أن مرضه حال دون إتمام هذه الحملة، ومات في سنة (558هـ/ 1163م).

يوسف بن عبد المؤمن

بويع يوسف في سنة (558هـ/ 1163م)، ليكون خلفًا لوالده. وما إن استقر في العاصمة حتى واجهته ثورة مرزدغ الصنهاجى بجبال غمارة، فنجح في القضاء عليها وتفريق أعوانها، ثم أمر بقتل مرزدغ، وحمل رأسه إلى العاصمة مراكش ، ووجه ابن عبد المؤمن جُلَّ جهوده إلى دعم سلطة الموحدين بالأندلس، وبعث بالحملات المتتابعة إليها، وخرج على رأس إحداها في سنة (566هـ/ 1170م)، لتأمين ثغور الأندلس وضبطها وإصلاحها، ثم خرج في سنة (579هـ/ 1183م) على رأس حملة كبيرة إلى الأندلس لغزوها، إلا أنه أصيب بطعنات نافذات عند أسوار شنترين، فأسرع الجند بحمله والعودة به مصابًا إلى مراكش، فقضى نحبه في سنة (580هـ/ 1184م)[4].

المنصور الموحدي

ولى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن خلفًا لوالده فى سنة (580هـ/ 1184م)، ولقب نفسه بالمنصور، وتوزعت جهوده العسكرية في أكثر من ميدان؛ حيث قامت ثورة بزعامة الجزيرى الذى أخذ يدعو لنفسه بين القبائل فى سنة (585هـ/ 1189م)، فقضى عليها المنصور وقتل زعيمها، ثم قامت ثورة أخرى ببلاد الزاب بزعامة رجل يدعى الأشلّ في سنة (589هـ / 1193م)، فكان مصيرها الفشل مثل سابقتها.

أما ثورة بنى غانية، التي استهدفت إحياء دولة المرابطين والدعاء للخلافة العباسية على المنابر بإفريقية، فكانت الخطر الحقيقي الذى هدد دولة الموحدين، فوجّه المنصور إليها كل جهوده للقضاء عليها، وعلى الرغم من تكرار المحاولة فإنه لم ينجح في القضاء عليها نهائياً.

[4] مجهول ، الحلل الموشية ، ص 158 ، أنظر أيضا ، ابن عذاري ، المصدر السابق ، ق 3 ، 139 ، المراكشي ، المصدر السابق ، ص 236 ، ابن ابي زرع ، المصدر السابق ، ص ص 208 – 209 .

وقد أولى المنصور الأندلس اهتمامه وعنايته، ودخل في عدة معارك مع الإفرنج؛ كانت أبرزها معركة الأرك في سنة (591هـ/ 1195م)، تلك التي أوقفت زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم بالشمال الإفريقي، ثم أصيب المنصور بوعكة صحية أدت إلى وفاته في سنة (595هـ / 1199م

الناصر الموحدى

تولى الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب خلفًا لوالده المنصور، فحدثت في عهده بعض التطورات السياسية والعسكرية التي انتقلت بدولة الموحدين من مرحلة القوة والسيادة إلى مرحلة الانهيار والسقوط؛ حيث تمكن في بداية حكمه من القضاء على ثورة «بنى غانية» بإفريقية التي دخلها في سنة (598هـ/ 1202م)، وعاد منها في سنة (604هـ/ 1207م)، بعد أن ولى على إفريقية أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص أحد أشياخ الموحدين، فعكف ابن أبى حفص على معالجة شئون إفريقية، ودعم سلطان الموحدين بها، إلا أن ولاية أبى حفص كانت البداية لقيام دولة الحفصيين بتونس؛ حيث استقل أبناؤه – بعد ذلك – بها وأسسوا ملكًا مستقلاً.

وقد فُجع الموحدون بهزيمة قاسية بالأندلس في معركة العقاب الطى راح ضحيتها عدد كبير من الجند، مما أضعف «دولة الموحدين» وأفقدهم هيبتهم، وأُصيب الناصر بالمرض، وتوفى في سنة (610هـ/ 1213م) ، وقد عرف الانهيار والضعف طريقهما إلى دولة الموحدين عقب وفاة الناصر، ودخلت الدولة مرحلة من الفوضى، والصراع بين أفراد البيت الموحدي، فضلاً عن اندلاع الثورات والقلاقل في أماكن متعددة، وظل هذا حالها حتى سنة (668هـ/ 1269م)، التي قتل فيها أبو دبوس آخر خلفاء الموحدين أمام أسوار العاصمة مراكش التي دخلها المرينيون وقضوا على دولة الموحدين. وقد تولى عقب وفاة الناصر عدد من الخلفاء الضعاف[5] .

[5] عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين ، تح: حسين مؤنس ، ط 1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد – القاهرة ، 1997 م ، أنظر أيضا ، هشام أبو رميلة ، المرجع السابق ، ص 275 .